دمشق في محراب الثقافة الموحدة

الأستاذ الدكتور حسين جمعة

هاهو ذا الشهر الخامس يغادرنا ولا تزال الأقلام تتبارى في حب الشام بمناسبة اختيار دمشق عاصمة للثقافة العربية لعام (2008م)، وما فتئ عدد من الفنانين والكتّاب والمثقفين والسياسيين والمسؤولين يظهرون فنوناً من الأداء المعبر عن ذلك الحب...

ومن ثم فمن يحتفل بدمشق يحتفل بالشام كلها باعتبارها تستعيد ذاكرة الإبداع والفكر والتاريخ العريق، فهي مهد الحضارات وملتقى الديانات... لهذا كله لا غرو أن يطلق على دمشق اسم الشام لأنها تختزل ذلك كله في إطار رمزي رائع...

فكل من يمد عينيه إلى فجر التقدم البشري الحضاري يوقن بأن أول حضارة زراعية نشأت في الشام وفق ما تدل عليه كهوف يبرود؛ وما عبرت عنه الآثار المكتشفة في تدمر وإيبلا وغيرهما... أما الارتقاء الحضاري الثقافي فلا يمكن أن يتخطى الأبجدية السورية الأولى التي ظهرت في (جبيل) بلبنان في اثنين وعشرين حرفاً وهي التي عرفت لدى اليونان باسمها العربي (ألف باء)، على حين كانت الأبجدية الأوغارتية التي ظهرت في (رأس شمرا) باللاذقية ثلاثين حرفاً، وهي أقدم أبجدية مكتوبة وصلت إلينا، علماً أن هناك التقاء كبيراً بين الكتابة الهيروغليفية التي عثر عليها في مناجم الفيروز بمصر وبين أبجدية (جبيل)، دون أن ينسى المرء أن

أبجدية أوغاريت كتبت بالحروف المسمارية، وهي الحروف التي ظهرت نماذج منهـا على نحو مشابه في اليمن...

وإذا كانت الكتابة في بداية البشرية تصويراً للغة المعبرة عن الأفكار والمشـاعر كما هي عليه في رسوم (وادي الملوك) بأقْصر مصر، والألواح السومرية القديمة فإننا نوقن بأن حضارة كل منهما قد امتدت إلى اللغة العربية والكتابة العربية فشكلت الهوية الواحدة، فضلاً عن العادات والتقاليد التي تشابهت بين الشعوب التي سكنت الجزيـرة العربية السفلى والعليا وبين وادي الرافدين ووادي النيل والساحل السوري...

ومن ثم تشكلت ثقافة عربية واحدة منذ فجر التاريخ، فلسفة وفكراً وعقائد، وفنـاً أدبياً ومعمارياً، رسماً ونحتاً...

وإذا كانت المؤلفات شرقاً وغرباً قـد عنيـت بالأشـكال الحضـارية الثقافيـة والمعمارية والفنية والأدبية والاجتماعية و... ما يشي بعشق هذه البلاد التي حباها الله من النعم ما لم تحزه أي بلاد أخرى، فضلاً عن جمال الطبيعـة وتنوعهـا وغناهـا بالموارد الكثيرة فوق الأرض وتحتها؛ نقول إذا كان ذلك كذلك فإن الشام بكل مكوناتها الطبيعية والحضارية تمثل فلسفة متجذّرة بعيدة الانتماء والدلائل... إنها موطن الحكمة والإبداع والجمال وموطن الثقافة الأصيلة منذ خلقها الله، وهيأها لتكون دمشق تاجهـا الأثيري كونها أقدم مدينة مأهولة في التاريخ... وبلاد الشام اليـوم ولاسـيما دمشـق ستظل حارسة وحاملة لهذه الثقافة الحضـارية التـي أسسـها الأجـداد الكنعـانيون والآراميون والآشوريون، والسـومريون والكلـدانيون والفينيقيـون والفراعنـة و... والعرب المسلمون مروراً بالعرب المسيحيين الذين نقلـوا المسـيحية السـمحة إلـى أوروبة، إذ كانت بلاد الشام مهدها في فلسطين، وطريقها إلى أوروبة، بعد أن استقرت بها على يد (بولس) الرسول.

لقد كانت بلاد الشام الموطن الأول لتأسيس المدن وتطوير الزراعة والصناعة والعمارة، والعناية بعلوم الطب والفلك والحياة الاجتماعية والثقافية والاقتصادية حتى قال أحد المستشرقين فيها: "إن لكل إنسان في العالم وطنين، وطنه الأصلي وسورية"، باعتبارها مهد التفاعل الحضاري في هذا الوجود المزنّر بالعطاء.

إن الوعي الإنساني، وقراءة المكتشفات الأثرية أثبتا –دون مراء- أن الأساطير القديمة الناظمة للحياة ولدت في بلاد الشام، إذ طور الآراميون كل ما ورثوه من السومريين، ولاسيما حين ظهرت "نصوص أدبية وعلمية وفلسفية وتجارية منقوشة على الأحجار"[1]؛ دون أن نغفل الإشارة إلى شريعة (حمورابي) التي عدت أصلاً لكثير من التشريعات والقوانين، والوصايا والحكم و... وكذلك هي وصايا لقمان الحكيم.

أما دخول أبناء بلاد الشام في الإسلام من سيناء حتى جبال طوروس فلم يتجاوز سبع سنوات[2]، ما يشي بالتقبل الحضاري الثقافي الديني الاجتماعي لكل ما أتى به الإسلام لأنه توافق مع ما كان موجوداً لديهم، على الرغم من أن بلادهم كانت خاضعة للنفوذ الروماني لزمن طويل.

ولا شيء أدل على هذه الثقافة الجامعة من أن الفلسفة الرواقية قد عنيت بالأمور الإلهية والإنسانية وأسست لمفهوم محبة الحكمة وطبقتها في الحياة على مبادئ الفضيلة والنظر في وحدة الإنسان وهي واحدة من الأسباب التي هيأت إلى تقبل أبناء بلاد الشام لمبادئ الإسلام وقيمه، فضلاً عن أن لانتشار الديانة المسيحية فيها كان سبباً آخر لفهم طبيعة الإسلام وأهدافه، ولا مراء بعد ذلك أن نرى الإسلام يصهر في بوتقته حياة

---

[1] انظر: النشرة الثقافية التي تصدرها الجمعية الآشورية في لبنان – السنة الثالثة- العدد 17-18- نيسان – تموز- 1981م.

[2] انظر: لبنان في التاريخ – فيليب حتي – دار الثقافة – بيروت 1959م- ص 292.

أبناء بلاد الشام وثقافتهم في إطار موحد جامع لمبادئه وما ورثوه، ولاسيما حين غدت دمشق عاصمة لحضارة عريقة مدت ظلها إلى أصقاع كثيرة شرقاً وغرباً، وحملت إلى أبنائها – في زمن قصير- كل أسباب النهوض والارتقاء والتقدم؛ علماً أن القبائل التي كانت تسكن فيها منذ فجر التاريخ كانت قبائل عربية، مهما اختلفت أسماؤها وأزمانها، ثم تركزت فيها هذه القبائل قبيل الإسلام بأسمائها العربية مثل (الأنبـاط والتـدمريين، وكندة، ولخم، وتنوخ، والغساسنة، والمناذرة، وتغلب وبكر، وكلب، وجذام و...).

وقد اعتمد عليه الإسلام في نشر دعوته ما ورد في قوله تعالى: ﴿ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة، وجاد لهم بالتي هي أحسن﴾ (النحـل 125) وقولـه تعالى: ﴿لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي﴾ (البقرة 256). باعتبـار حريـة الإنسان ومسؤوليته عن تصرفاته.

وكان الشعراء العرب الجاهليون يتوافدون إلى دمشق كونهـا جامعـة للثقافـة الموحدة، إذ التقى النابغة الذبياني وحسان بن ثابت وعلقمة الفحل، وآخرون غير مـرة يتناشدون الشعر في مجالس أمراء الغساسنة، وحسان هو القائل في الغساسنة[1]:

لله در عصـــابة نـــادمتهم ... يومـاً بجِلّـق فـي الزمـان الأول
يسقون من ورد البـريص علـيهم ... بردى يصـفّق بـالرحيق السلسـل

ولعل المقام يضيق بنا لو أردنا الإفاضة في الحديث عن مكانة دمشق في إطـار الثقافة الموحدة لغة وأدباً وفلسفة وفناً وتاريخاً وعمارة و... فقد ظلت قبلـة العشـاق والرواد من كل جنس ولون، وأصبحت مثار محاكاة وتشبهٍ على عـدد مـن الصـعد والمستويات، إذا تجاهلنا المجد التاريخي لوحدة الأمة وتحررها، وفق ما أسسه (نـور

[1] ديوان حسان بن ثابت – تحقيق سيد حنفي حسنين – ص 122-123.

الدين زنكي وصلاح الدين الأيوبي والظاهر بيبرس) في الحروب الصليبية. فإذا كانت مكة منارة الدين الإسلامي فإن دمشق منارة ثقافة العروبة والوحدة.

فبلاد الشام -ولاسيما دمشق وجامعها الأموي- ظلت المكان الذي التقـت فيـه الذات الوطنية بالقومية بالثقافة الجامعة قديماً وحديثاً؛ ففي الجامع الأموي تلتقي الحقب التاريخية بكل تياراتها الفكرية والدينية؛ وفيه تتلاقـى التيـارات والمـذاهب متآلفـة متكاملة... لذلك كله فدمشق رمز لمجد الشرق وعزته كما قال فيها أحمد شوقي: "وعز الشرق أوله دمشق".. فهي الدنيا التي صفت لكل من سكنها أو وفد إليها، كالصنوبري الذي زارها فقال فيها:

صـفَت دمشـق لسـاكنيها فلسـت تـرى بغيـر دمشـق دنيـا

ولم يتبدل حال دمشق مع الأدباء والكتّاب والمثقفين فما زالت تستقبل مـن كـل حدب وصوب، يأتونها لينهلوا من زادها الفكري والأدبي والحضاري ما وسعهم الجهد إلى ذلك، وتخرجهم في جامعتها (جامعة دمشق) التي تعد أول جامعة عربية تنتصـر للغة العربية باعتبارها وعاء الثقافة والفكر والأدب والعلـم والقـانون فجعلتهـا لغـة التدريس في معهدي الطب والحقوق عام (1919م) وهو العام الذي أُسـس فيهـا أول مجمع للغة العربية في الوطن العربية...

وفرشت دمشق وجامعتها مدارج الرقي لوحدة الثقافة العربية وتنوعها وانفتاحهـا على ثقافة الآخر، حتى أنتجت أجيالاً من المبدعين الذين غدوا مدارس أدبيـة وفنيـة وفكرية وثقافية و... ويكفي أن نشير إلى عدد منهم مثل: (عمر أبو ريشـة، وبـدوي الجبل، وعبد السلام العجيلي، وعبد المعين الملوحي، وحسيب كيالي، وداود الأنطاكي و...

أما أبناء دمشق فقد بادلوها عطاء بعطاء فكانوا نجوماً تزهو بهم مثـل (شـفيق جبري، وسعيد الأفغاني، ومحمد المبارك، والزركلي، ومحمد البزم، ومحمد كرد علي، وحسني سبح، و...) .

ومن منا يذكر دمشق دون أن يذكر شاعرها الأشهر (نزار قباني) وهـو القائـل فيها:

ودمشق تعطـي للعروبـة شـكلها وبأرضـها تتشـكل الأحقـاب
والدهر يبدأ من دمشـق وعنـدها تبقـى اللغـات وتحفـظ الأنسـاب

ولذلك كله كانت عنايتنا بدمشق في عام الاحتفال بها عاصمة للثقافـة العربيـة، باعتبارها جامعة للثقافة الموحدة فخصصنا هذا العدد من مجلة الجامعة لأبحاث تتناول دمشق بكل صدق وموضوعية... ومنها:

مقالة علمية: دمشق عاصمة للحضارة الزراعية العربية، وبحث: دمشـق: مـن المستوطنة إلى المملكة، وبحث العمارة الإسلامية في دمشق، وبحث: إيالة دمشـق - دراسة توثيقية نقدية في مخطوط رسالة جغرافية بلاد الشام للعـالم الأديـب رفاعـة الطهطاوي، وبحث: المغاربة ومنصب قاضي القضاة المالكي في دمشق المملوكيـة، وبحث: دمشق في سجل الحضارة والفن، وبحث: العصر الذهبي للممارسة الطبيـة - مدرسة دمشق، وبحث: ملامح من الحياة الاقتصادية والاجتماعية في الريف الدمشقي إبان القرن الثامن عشر من خلال المجاميع الفقهية، ومقالة في عـرض لـ: أدبـاء دمشق في العصر الحديث، وبحث: دمشق مدينة الياسمين، وبحث: دمشق فـي الأدب العربي قديمه وحديثه، ومكانة الشام والقدس في النصوص الأدبية الفارسية "سفرنامه» ناصرخسرو- نموذجاً، وبحث: دمشق- اتجاهاتها الأدبية في عصـر بنـي أميـة، ودراسة لمخطوط: المرأة الدمشقية المؤلفة - ماري عجمي ومساهمتها في بيولوجيـا

الأسرة، وبحث: الشباب الجامعي والهوية الثقافية في ظل العولمة الجديـدة (دراسـة ميدانية على طلبة جامعة دمشق)، وقيم حقوق الطفل في أغاني الأطفال -إذاعة دمشق نموذجاً-، وسمات من المجتمع الدمشقي وخصائصه، وبحث: مقامات وأضرحة أهـل البيت وبعض الصحابة في مدينة دمشق وريفها ودورها في السياحة الدينية، وبحـث: التلوث الهوائي الناجم عن السيارات وحركة المرور في مدينة دمشق.

وإذا كانت دمشق تحتاج من الباحثين العلماء كل جهد وعناية فإننا نأمل أن تكون هذه البحوث زاداً للقارئ في التعرف إلى هذه المدينة التي تعد أقدم مدينة مأهولة فـي التاريخ...

ونرجو أن تكون نهضتنا بما تستحقه في عام اختيارها عاصمة للثقافة العربية.

والله من وراء القصد